الاعتبار ببقاء الجنة والنار

تصنيف

الإمام الفقيه الأصولي المجتهد النظَّار
تقي الدين أبي الحسن علي بن عبد الكافي
السبكي الأنصاري الشافعي
رحمه الله تعالى

(683 – 756 هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وبعد...

فإنَّ اعتقادَ المسلمين أنَّ الجنة والنار لا تفنيان، وقد نَقَلَ أبو محمَّد بن حزم الإجماع على ذلك، وأنَّ من خالفه كافرٌ بإجماع، ولا شكَّ في ذلك فإنه معلوم من الدين بالضرورة، وتواردت الأدلة عليه.

قال الله تعالى: (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحابُ النَّار هُم فيها خالدون).

وقال تعالى: (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).

وقال تعالى: (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون).

وقال تعالى: (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).

وقال تعالى: (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).

وقال تعالى: (خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون إلا الذين تابوا).

وقال تعالى: (إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).

وقال تعالى: (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها).

وقال تعالى: (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها).

وقال تعالى: (إن الذين كفروا وظلموا) .. إلى قوله: (خالدين فيها أبداً).

وقال تعالى: (النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله).

وقال تعالى: (والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).

وقال تعالى: (ألم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم خالدا فيها).

وقال تعالى: (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم).

وقال تعالى: (كلما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).

وقال تعالى: (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك).

وقال تعالى: (أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).

وقال تعالى: (فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين).

وقال تعالى: (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون).

وقال تعالى: (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون).

وقال تعالى: (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون).

وقال تعالى: (يضاعف له يوم القيامة ويخلد فيه مهانا).

وقال تعالى: (إن الله لعن الكافرين واعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً).

وقال تعالى: (قل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين).

وقال تعالى: (ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد).

وقال تعالى: (إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم).

وقال تعالى: (كمن هو خالد في النار).

وقال تعالى: (لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).

وقال تعالى: (فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها).

وقال تعالى: (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير).

وقال تعالى: (ومنْ يعصِ الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبداً).

وقال تعالى: (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها).

فهذه أربع وثلاثون آية فيها لفظ الخلود وما اشتق منه أربع من التأبيد، والآيات التي فيها معناه كثيرة أيضاً كقوله تعالى: (فلا يخفف عنهم العذاب).

وقوله تعالى: (لا يخفف عنهم العذاب).

وقوله تعالى: (وما هم بخارجين من النار).

وقوله تعالى: (وما له في الآخرة من خلاق).

وقوله تعالى: (وما لهم من ناصرين).

وقوله تعالى: (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها).

وقوله تعالى: (لا يجدون عنها محيصا).

وقوله تعالى: (وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم).

وقوله تعالى: (ليس مصروفا عنهم).

وقوله تعالى: (أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار).

وقوله تعالى: حكاية عنهم (ما لنا من محيص).

وقوله تعالى: (جهنم يصلونها وبئس القرار).

وقوله تعالى: (اخسؤا فيها ولا تكلمون).

وقوله تعالى: (أولئك يئسوا من رحمتي).

وقوله تعالى: (فاليوم لا يخرجون منها).

وقوله تعالى: (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها).

وقوله تعالى: (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها).

وقوله تعالى: (لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخنف عنهم من عذابها).

وقوله تعالى: (مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا).

وقوله تعالى: (فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون).

وقوله تعالى: (ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) إلى قوله: (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال).

وقوله تعالى: (ألا إنَّ الظالمين في عذاب مقيم).

وقوله تعالى: (فليس له اليوم ههنا حميم ولا طعام إلا من غِسْلِين).

وقال تعالى: (فلن نزيدكم إلا عذاباً).

وقال تعالى: (ثم لا يموت فيها ولا يحيى)

وقال تعالى: (نارٌ موصدة)

وقال تعالى: (وما هم عنها بغائبين).

وغيرها من الآيات كثيرٌ في هذا المعنى جدًّاً، وذلك يمنع من احتمال التأويل ويوجب القطع بذلك ، كما أن الآيات الدالة على البعث الجسماني لكثرتها يمتنع تأويلها، ومَنْ أولها حكمنا بكفره بمقتضي العلم جملةً.

وكذلك الأحاديث متظاهرة جدًّاً على ذلك، كقوله صلى الله عليه وسلم: (من قتل نفسه بحديدةٍ فحديدته في يده يتواجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلدا فيها أبدا، ومن تردى من جبل فتتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا) متفق عليه من حديث أبي سعيد.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون) صحيح من حديث أبي سعيد.

وقوله عليه السلام: (إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار فيذبح، فينادي مناد: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت)، وفي رواية صحيحة: (فخلود فلا موت وفي الجنة مثل ذلك).

وقال تعالى: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون).

وقال تعالى: (قل أؤنبئكم بخيرٍ من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله).

وقال تعالى: (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

وقال تعالى: (لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نُزُلاً من عند الله).

وقال تعالى: (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم).

وقال تعالى: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقا).

وقال تعالى: (فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها).

وقال تعالى: (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً).

وقال تعالى: (أعدَّ الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها)

وقال تعالى: (والسابقون الأولون) إلى قوله: (وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها).

وقال تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون).

وقال تعالى: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) إلى قوله: (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون).

وقال تعالى: (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ).

وقال تعالى: (أكلها دائم وظلها).

وقال تعالى: (وادخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم).

وقال تعالى: (لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين).

وقال تعالى: (وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً).

وقال تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً).

وقال تعالى: (جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى).

وقال تعالى: (وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون).

وقال تعالى: (الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون).

وقال تعالى: (أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون).

وقال تعالى: (خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً).

وقال تعالى: (لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها).

وقال تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقاً).

وقال تعالى: (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين).

وقال تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون).

وقال تعالى: (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون).

وقال تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) إلى قوله: (خالدين فيها جزاء بما كانوا يعلمون).

وقال تعالى: (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها).

وقال تعالى: (ويطوف عليهم ولدان مخلدون).

وقال تعالى: (بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم).

وقال تعالى: (ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه).

وقال تعالى: (ذلك يوم الخلود).

وقال تعالى: (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم).

وقال تعالى: (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقا)

وقال تعالى: (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون)

وقال تعالى: (أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه).

فهذه الآيات التي استحضرناها في بقاء الجنة والنار، وبدأنا بالنار لأنا وقفنا على تصنيفٍ لبعض أهل العصر في فنائها.

وقد ذكرنا نحو مائة آية، منها نحو من ستين في النار، ونحو من أربعين في الجنة، وقد ذكر الخلد أو ما اشتق منه في أربع وثلاثين في النار وثمان وثلاثين في الجنة، وذكر التأبيد في أربع في النار مع الخلود، وفي ثمان في الجنة منها سبع مع الخلود، وذكر التصريح بعدم الخروج أو معناه في أكثر من ثلاثين .

وتضافر هذه الآيات ونظائرها يفيد القطع بإرادة حقيقتها ومعناها، وأن ذلك ليس مما استعمل فيه الظاهر في غير المراد به.

ولذلك أجمع المسلمون على اعتقاد ذلك وتلقوه خلفاً عن سلف عن نبيهم صلى الله عليه وسلم، وهو مركوز في فطرة المسلمين، معلوم من الدين بالضرورة، بل وسائر الملل غير المسلمين يعتقدون ذلك، **ومن ردَّ ذلك فهو كافرٌ، ومن تأوَّلَه فهو كمَنْ تأوَّل الآيات الواردة في البعث الجسماني، وهو كافر أيضاً بمقتضى العلم**.

وقد وَقَفتُ على التَّصنِيفِ المذكور وذكر فيه ثلاثة أقوال في فناء الجنة والنار:

أحدها: أنهما تفنيان وقال: إنه لم يقل به أحد من السلف.

والثاني: أنهما لا تفنيان.

والثالث: أن الجنة تبقى والنار تفنى، ومال إلى هذا واختاره، وقال: إنه قول السلف!!

ومعاذ الله، وأنا أبرئ السلف عن ذلك، ولا أعتقد أنَّ أحداً منهم قاله، وإنما روي عن بعضهم كلماتٌ تُتأوَّل كما تتأول المشكلات التي ترد وتحمل على غير ظاهرها، فكما أن الآيات والأحاديث يقع فيها ما يجب تأويله، كذلك كلام العلماء يقع فيه ما يجب تأويله.

ومَنْ جاء إلى كلمات تَرِدُ عن السلف في ترغيب أو ترهيب أو غير ذلك فأخذ بظاهرها وأثبتها أقوالاً ضَلَّ وأَضَلَّ.

وليس ذلك من دأبِ العلماء، ودأبُ العلماء التنقير عن معنى الكلام والمراد به وما انتهى إلينا عن قائله، فإذا تحققنا أنَّ ذلك مذهبه واعتقاده نسبناه إليه، وأما بدون

ذلك فلا، ولا سيما في مثل هذه العقائد التي المسلمون مطبقون فيها على شيءٍ، كيف يُعمَدُ إلى خلاف ما هم عليه ينسبه إلى جلة المسلمين وقدوة المؤمنين ويجعلها مسألة خلاف كمسألة في باب الوضوء ؟!!

ما أبعد مَنْ صَنَعَ هذا عن العلم والهدى!! وهذه بِدعَةٌ من أنجس البدع وأقبحها، أضل الله مَنْ قالها على علمٍ.

فإن قلت: قد قال الله تعالى: (لابثين فيها أحقابا).

قلت: هو جمع منكَّر، يصدق على القليل والكثير وعلى ما لا نهاية له.

فإن قلت: هو جمع قِلَّةٍ لأنَّ أفعالاً من جموع القلة.

قلتُ: قد تجمع القلة بجمع الكثرة، وأيضاً فالحقب الزمان، والزمان يصدق على القليل والكثير، فإذا كان المفرد كذلك فما ظنك بالجمع !؟

فإن قلتَ: قد قيل إن الحقب ثمانون سنة، السنة ثلثمائة وستون يوماً، اليوم كألف سنة مما تعدون اليوم منها كالدنيا كلها.

قلت: إذا صح ذلك فغايته الإخبار بأنهم لابثون فيها ذلك، ولا يدل على نفي الزيادة إلا بالمفهوم، والمنطوق يدل على التأبيد والمنطوق مقدم على المفهوم .

هذا إن جعلنا أحقاباً آخر الكلام، وقد جعله الزجاج وغيره موصوفاً بقوله: (لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً)، وعلى هذا لا يبقى فيه متعلق البتة.

فإن قلت: قد روي عن الحسن الأحقاب لا يدري أحد ما هي، ولكن الحقب سبعون ألف سنة اليوم منها كألف سنة مما تعدون.

قلتُ: إن ثبت ذلك عنه يرجع الجواب إلى بعض ما تقدم من الصفة أو إلغاء المفهوم أو أن الذي لا يتناهى يقال إنه لا يدري أحد ما هو، وان كان يدري أنه لا يتناهى فإن دراية عدم العدد يلزم منها عدم دراية العدد.

فإن قلت: قد قال هذا المصنف إن قول الحسن لا يدري ما هي يقتضي أن لها عدداً والله أعلم به، ولو كانت لا عدد لها لعلم كل أحد أنه لا عدد لها.

قلتُ: إن قوله: (لا يدري ما هي يقتضي أن لها عدداً) ليس بصحيح؛ لأنه لم يقل: لا يدرى عددها، بل قال: لا يدري ما هي، و(ما هي) أعمُّ المطالب، فيدخل فيه المتناهي وغير المتناهي.

وقوله: (ولو كانت لا عدَدَ لها لعلم كل أحد أنه لا عدد لها) عجبٌ؛ لأنه كيف يلزم من أنها لا عدد لها علمُ كل أحد بذلك، فقد يعلمه بعض الناس دون بعض.

والحاصل أن الأحقاب قيل محدودة، وهو قول الزجاج القائل بأن (لا يذوقون) صفة، وقيل: غير محدودة، وقيل الآية منسوخة بقوله تعالى: (فلن نزيدكم إلا عذابا) ولا يستبعد النسخ في الأخبار، ولا سيما مثل هذا فان هذا مما يقبل التغيير وهو أمر مستقبل.

والأكثرون على أنها غير محدودة، وأن المراد كلما مضى حقب جاء حقب.

فإن قلت: فما تقول فيما روي عن الحسن البصري أنه سئل عن هذه الآية فقال: (الله أعلم بالأحقاب فليس فيها عدد إلا الخلود) ؟

قلت: قول صحيح لا يخالف لما تقدم، وتصريحه بالخلود بين مراده.

فإن قلت: فقد قال هذا المصنف أن قول الحسن حق فإنهم خالدون فيها لا يخرجون منها ما دامت باقية.

قلت: قوله (أن قول الحسن حق) صحيح، وأمَّا فهمه إياه وتفسيره الخلود بعدم الخروج منها ما دامت باقيه فليس بصحيح، وليس ذلك بخلود، فإنَّك إذا قلت: فلانٌ خالد في هذه الدار الفانية لا يصح، وحقيقة الخلود التأبيد، وقد يستعمل في المكث الطويل مجازاً، وأما استعماله في الخلود في مكانٍ إلى حين فنائه فهذا معنى ثالث لم يسمع من العرب.

فإن قلت: ما تقول في قول من قال ان الاية في عصاة المؤمنين

قلت: ضعيف لقوله: (إنهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذاباً)، اللهم إلا أن نجعلها عامة ويكون التعليل ليس للجميع، بل لبعضهم، وقد يجئ في الكلام الفصيح مثل ذلك، أو يراد بالطاغي الكفار، فإنها مرصاد لهم، والعصاة فيها تبع لهم فجاء قوله: (لابثين فيها أحقابا) للتابعين والمتبوعين جميعاً، ثم جاء التعليل للمتبوعين لأنهم الأصل.

فإن قلت: قوله تعالى في سورة الأنعام: (يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس) إلى قوله (مثواكم النار خالدين فيها إلا ما شاء الله)، وأولياؤهم هم الكفار

لقوله: (وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) وقوله في سورة هود في أهل الجنة وأهل النار (إلا ما شاء ربك) على ماذا يحمل إذا كانتا باقيتين ؟

قلت: قد تكلم الناس في ذلك وأكثروا، وذكر أبو عمرو الداني في تصنيفٍ له في ذلك سبعة وعشرين قولاً، ليس فيها إن الكفار يخرجون من النار، وإنما أقوال أخر منها أنه استثناء المدة التي قبل دخولهم أو الأزمنة التي يكون أهل النار فيها في الزمهرير ونحوه، وأهل الجنة فيما هو أعلى منها من رضوان الله وما لا يعلمه إلا هو.

أو أنه استثناء معلَّق بالمشيئة، وهو لا يشاء خروجهم، فهو أبلغُ في التأبيد.

أو أن (إلا) بمعنى الواو، كقوله: إلا الفرقدان.

أو إنها بمعنى (سوى)، حكاه الكوفيون، كقوله: (إلا ما قد سلف)، وقوله: (لو كان فيهما آلهة إلا الله).

أو إن الاستثناء لما بعد السموات والأرض، كقوله: لا تكسل حولا إلا ما شئت، معناه الزيادة على الحول.

أو أنه لعصاة المؤمنين.

والذي يدل على التأبيد قوله في الجنة: (عطاء غير مجذوذ)، فلو لم يكن مؤبداً لكان مقطوعاً، فيتعين الجمع بين أول الآية وآخرها، فبقي يقيناً الاستثناء على ظاهر هذا المجاز في قوله: (عطاء غير مجذوذ)، وليس التجوُّز فيه بأولى من التجوز في الاستثناء، ويرجِّحُ التجوز في الاستثناء الأدلة الدَّالَّة على التخليد.

وقوله في النار: (إن ربك فعال لما يريد) يناسب الوعيد والزيادة في العذاب ولا يناسب الانقطاع .

واعلم إن (ما شاء ربك) ظاهره استثناء مدة زمانية من قوله: (ما دامت السموات والأرض)، ويحتمل أن يراد بها ظرف مكان ويكون الاستثناء من الضمير في فيها ويراد به الطبقة العليا التي هي لعصاة المؤمنين، فكأنه قال: إلا ما شاء ربك من أمكنة جهنم.

فإن قلت: قد قال أبو نضرة: القرآن كله ينتهي إلى هذه الآية (إنَّ ربك فعال لما يريد).

قلت: هذا كلام صحيح، واللهُ يفعل ما يريد وليس في ذلك أنه يخرج الكفار من النار.

فإن قلت: قد قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وقتادة: الله أعلم بتثنيته على ما وقعت.

قلتُ: صحيح؛ لأنَّ تعيين كل واحد من الأقوال التي حكيناها ضعيف، والله أعلم به وبغيره، وليس في كلام أبي سعيد وقتادة ما يحتمل خروج الكفار من النار.

فإن قلت: قد روى الطبراني عن يونس عن ابن أبي ذئب عن ابن زيد في قوله: (عطاء غير مجذوذ) قال: أخبرنا الذي شاء لأهل الجنة فقال: (عطاء غير مجذوذ) ولم يخبرنا بالذي شاء لأهل النار.

قلت: هذا الذي يقتضي أن ابن زيد يقول بعدم الانقطاع لأنه جعل (عطاء غير مجذوذ) هو الذي شاءه وهو الذي بعد الاستثناء فكذا يكون في أهل النار إن الاستثناء لا يدل على الانقطاع ولكنه لم يبين ما بعده، بل قال تعالى (إن ربك فعال لما يريد).

فإن قلت: فقد قال السدي إنها يوم نزلت كانوا يطمعون في الخروج.

قلت: إن صح هذا عن السدي أنها يوم نزلت كانوا يطمعون في الخروج فهو محمول على أنه حملها على العصاة؛ لأن الطامعين هم المسلمون.

فإن قلت: قد روى عبد بن حميد في تفسيره عن سليمان بن حرب، نا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن قال عمر رضي الله عنه: لو لبث أهل النار في النار بقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون.

قلت: الحسن لم يسمع من عمر، وقد رأيتُ هذا الأثر في تفسير عبد في موضعين في أحدهما (يخرجون) وفي الآخر (يرجون)، لا تصريح فيه فقد يحصل لهم رجاء ثم ييأسون ويخرجون، يحتمل أن يكون من النار إلى الزمهرير، ويحتمل أن يكون ذلك في عصاة المؤمنين، فلم يجئ في شيء من الآثار إنه في الكفار.

فإن قلت: قد قال هذا المصنف: إنه يحتج على فناء النار بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة، وأن القائلين ببقائها ليس معهم كتاب ولا سنة ولا أقوال الصحابة رضي الله عنهم.

قلت: هذا الكتاب والسنة بين أظهرنا بحمد الله، وهما دالان على بقائها.

فإن قلت: قد ورد في مسند أحمد حديثٌ ذكر فيه أنه ينبت فيها الجرجير.

قلت: ليس في مسند أحمد، ولكنه في غيره، وهو ضعيف ولو صح حمل على طبقة العصاة.

فإن قلت: قال حرب الكرماني: سألت إسحق عن قول الله تعالى: (إلا ما شاء ربك) فقال: أتت هذه الآية على كل وعيد في القرآن، وعن أبي نضرة عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: هذه الآية تأتي على القرآن كله حيث كان في القرآن (خالدين فيها) تأتي عليه.

قلت: إن صحت هذه الآثار حملت على العصاة، لأنَّ القرآن لم يرد فيه خروج العصاة من النار صريحاً، إنما ورد في السنة بالشفاعة، فالمراد بهذه الآثار موافقة القرآن للسنة في ذلك، فإن السلف كانوا شديدي الخوف ولم يجدوا في القرآن خروج الموحدين من النار وكانوا يخافون الخلود كما تقوله المعتزلة.

فإن قلت: قال ابن مسعود رضي الله عنه ليأتين على جهنم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً.

قلتُ: إن صح هذا عن ابن مسعود حمل على طبقة العصاة، وقوله أحقابا يحمل على أحقاب غير الأحقاب المذكورة في القرآن حتى يصح الحمل على العصاة.

فإن قلت: قال الشعبي جهنم أسرع الدارين عمراناً وأسرعهما خراباً.

قلتُ: أنا أعيذ الشعبي من ذلك فإنه يقتضي خراب الجنة.

فإن قلت: قد اعترض هذا المصنف على الإجماع، لأنه غير معلوم، فان هذه المسائل لا يقطع فيها بإجماع، نعم قد يظن فيها الإجماع وذلك قبل أن يعرف النزاع، وقد عرف النزاع قديماً وحديثاً، بل إلى الساعة.

قلت: الإجماع لا يعترض عليه بأنه غير معلوم، بل يعترض بنقل خلافٍ صريحٍ، ولم ينقله وإنما هو من تصرفه وفهمه.

وقوله: إن هذه المسائل لا يقطع فيها بإجماع **دعوى مجردة**.

فإن قلت: قد قال لم أعلم أحداً من الصحابة رضي الله عنهم قال: لا تفنى، إنما المنقول عنهم ضد ذلك، لكن التابعون نقل عنهم هذا وهذا.

قلت: هو مطالب بالنقل عن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين، ولن يجده، وغايته كما قلت لك أن يأخذه من كلمات وَرَدَتْ، فَهِمَ منها ذلك، ويجب تأويلها تحسيناً للظن بهم.

فإن قلت: قد قال: إنه ليس في القرآن ما يدل على أنها لا تفنى، بل الذي يدل عليه ظاهر القرآن أنهم خالدون فيها أبداً، وأنه يقتضي خلودهم فيها ما دامت باقية لا يخرجون منها مع بقائها وبقاء عذابها كما يخرج أهل التوحيد.

قلت: قد قلت لك إن حقيقة الخلود في مكان يقتضي بقاء ذلك المكان.

وقد تأملتُ كلام المصنف فلم أر فيه زيادة على ذلك، بل اندفع في ذكر الآيات وأحاديث الشفاعة، ولم يبين ما يؤول إليه أمر الكفار بعد فناء النار.

فإن قلت: قد فرق بين بقاء الجنة والنار شرعاً وعقلاً:

أمَّا شرعاً فمن وجوه: أحدهما أن الله تعالى أخبر ببقاء نعيم أهل الجنة ودوامها، وأنه لا نفاد له ولا انقطاع في غير موضع من كتابه، كما أخبر أن أهل الجنة لا يخرجون منها، وأما النار وعذابها فلم يخبر ببقاء ذلك، بل أخبر أن أهلها لا يخرجون منها.

قلتُ: قد أخبر في النار وأهلها أنهم في عذاب مقيم وأنهم لا يفتر عنهم ولا يخفف عنهم، فلو فنيت لكان إما أن يموتا فيها أو يخرجوا، وكل منهما أخبر في القرآن بنفيه.

فإن قلت: قد ذكره من الوجوه الشرعية أن الجنة من مقتضى رحمته والنار من عذابه، فالنعيم من موجب أسمائه التي هي من لوازم ذاته فيجب دوامه بدوام معاني أسمائه وصفاته، والعذاب من مخلوقاته والمخلوق قد يكون له انتهاء، لا سيما مخلوق خلق لحكمة تتعلق بغيره.

قلت: ومن أسمائه تعالى (شديد العقاب والجبار والقهار والمذل والمنتقم)، فيجب دوامه بدوام ذاته وأسمائه أيضاً.

فنقول لهذا الرجل: إن كانت هذه الأسماء والصفات تقتضي دوام ما يقتضيه من الأفعال فيلزم قدم العالم، وإن كانت لا تقتضي فلا يلزم دوام الجنة، فأحد الأمرين لازم لكلام هذا الرجل، وكل من الأمرين باطلٌ، فكلام هذا الرجل باطل.

فإن قلت: قد قال إنه خبَّر أن رحمته وسعت كل شيء، (وسبقت رحمتي غضبي)، فإذا قدَّر عذاب لا آخر له لم يكن هناك رحمة البتة.

قلت: الآخرة داران: دارُ رحمة لا يشوبها شيء، وهي الجنة، ودار عذاب لا يشوبه شيء وهي النار، وذلك دليل على القدرة، والدنيا مختلطة بهذا وبهذا.

فقوله: (إذا قدِّر عذاب لا آخر له لم يكن هناك رحمة البتة) إن أراد نفي الرحمة مطلقاً فليس بصحيح؛ لأن هناك كمال الرحمة في الجنة.

وإن أراد لم يكن في النار قلنا: مه، وإن قال: إنها شيء والعقاب شيء وقد قال تعالى: (فسأكتبها للذين يتقون) .

فإن قلت: قد ثبت أنه حكيم رحيم والنفوس الشريرة التي لو ردت إلى الدنيا لعادت لا تصلح أن تسكن دار السلام، فإذا عذبوا عذاباً تخلص نفوسهم من ذلك الشر، كان هذا معقولاً في الحكمة، أما خلقُ نفوس تعمل الشر في الدنيا وفي الآخرة لا تكون إلا في العذاب فهذا تناقض يظهر فيه من مناقضة الحكمة والرحمة ما لا يظهر في غيره ، ولهذا كان جهم ينكر أن يكون الله تعالى أرحم الراحمين، بل يفعل ما يشاء.

والذين سلكوا طريقته كالأشعري وغيره ليس عندهم في الحقيقة له حكمة ولا رحمة، وإذا ثبت أنه حكيم رحيم وعُلم بطلان قول جهم تعين إثبات ما تقتضيه الحكمة والرحمة.

وما قاله المعتزلة أيضاً باطل، فقول القدرية والمجبرة والنفاة في حكمته ورحمته باطل.

ومن أعظم غلطهم اعتقادهم تأبيد جهنم، فإن ذلك مستلزم ما قالوه، وقد أخبر تعالى أن أهل الجنة والنار لا يموتون، فلا بد لهم من دار، ومحال أن يعذبوا بعد

دخول الجنة، فلم يبق إلا دار النعيم، والحي لا يخلو من لذة أو ألم، فإذا انتفى الألم تعينت اللذة الدائمة.

قلت: قد صرح بما صرح به في آخر كلامه، فيقتضي أن إبليس وفرعون وهامان وسائر الكفار يصيرون إلى النعيم المقيم واللذة الدائمة !! وهذا ما قال به مُسلمٌ ولا نصراني ولا يهودي ولا مشرك ولا فيلسوف.

أما المسلمون فيعتقدون دوام الجنة والنار، وأما المشرك فيعتقد عدم البعث، وأما الفيلسوف فيعتقد أن النفوس الشريرة في ألم، فهذا القول الذي قاله هذا الرجل ما نعرف أحداً قاله، وهو خروج عن الإسلام بمقتضى العلم إجمالاً.

وسبحان الله إذا كان الله تعالى يقول: (أولئك الذين يئسوا من رحمتي) وكذلك قوله تعالى: (كلما خبت زدناها سعيراً)، ونبيه صلى الله عليه وسلم يخبر بذبح الموت بين الجنة والنار ولا شك أن ذلك إنما يفعل إشارة إلى إياسهم وتحققهم البقاء الدائم في العذاب، فلو كانوا ينتقلون إلى اللذة والنعيم لكان ذلك رجاء عظيماً لهم وخيراً من الموت، ولم يحصل لهم إياس.

فمن يصدق بهذه الآيات والأحاديث كيف يقول هذا الكلام ؟!

وما قاله من مخالفة الحكمة جهلٌ، وما ينسبه إلى الأشعري رضي الله عنه افتراء عليه نعوذ بالله تعالى منه.

فإن قلت: قد يقول إنه تخلص نفوسهم من الشر بذلك العذاب فيسلمون.

قلت: معاذ الله، أما إسلامهم في الآخرة فلا ينفعهم بإجماع المسلمين وبقوله تعالى: (لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل).

وأما خلوصهم من الشر فباطل لقوله تعالى: (ختم الله على قلوبهم) و (طبع على قلوبهم) فهذا يستحيل أن يخرج الشر من قلوبهم أو يدخل فيها خير.

فإن قلت: ما في خلق هؤلاء من الحكمة ؟

قلتُ: إظهار القدرة واعتبار المؤمنين وفكرتهم في عظمة الله تعالى القادر على أن يخلق الملائكة والبشر الصالحين والأنبياء ومحمداً صلى الله عليه وسلم سيد الخلق، وعلى أن يخلق من الطرف الآخر فرعون وهامان وأبا جهل وشياطين الجن والإنس وإبليس رأس الضلال، والقادر على خلق دارين متمحضة كل واحدة منهما هذه للنعيم المقيم وهذه للعذاب الأليم، ودار ثالثة وهي الدنيا ممتزجة من النوعين، فسبحان من هذه قدرته وجلت عظمته، وكان الله سبحانه قادراً أن يخلق الناس كلهم مؤمنين طائعين، ولكن أراد سبحانه أن يبين الشيء وضده، عَلِمه مَنْ علمه وجهله من جهله ، والعلم منشأ السعادة كلها نشأ عنه الإيمان والطاعة ، والجهل منشأ الشقاوة كلها نشأ عنه الكفر والمعصية، وما رأيت مفسدة من أمور الدنيا والآخرة تنشأ إلا عن الجهل، فهو أضر الأشياء.

فإن قلت: قد نقل عن جهم وأصحابه أنهم قالوا بفناء الجنة والنار، وأن أئمة الإسلام كفروهم بذلك لأربع آيات من القرآن قوله تعالى: (أكلها دائم) و (ماله نفاد) (لا مقطوعة ولا ممنوعة) (عطاء غير مجذوذ) ولما رواه الطبراني وابن ماجة في التفسير.

قلت: <u>من قال بفناء الجنة والنار أو أحدهما فهو كافر</u>.

فإن قلت: قد قال هذا المصنف إن هذا قاله جهم لأصله الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث، وهو عمدة أهل الكلام استدلوا به على حدوث الأجسام وحدوث ما لا يخلو من الحوادث.

قلت: في هذا دسيسة يشبه أن يكون هذا المصنف قصد به التطرق إلى حلول الحوادث بذات الباري تعالى وتنزه، وقد أطال الكلام في ذلك وقال بعده: إنه اشتبه هذا على كثير من أهل الكلام هذا ما اعتقدوه حقّاً حتى بنوا عليه حدوث ما لم يخل عن الحوادث، ثم قال: وعليه أيضاً نفي الصفات لأنها أعراض لا تقوم إلا بجسم.

هذا كلامه، ويشبه أن يكون عمل هذا التصنيف وسيلةً إلى تقرير ذلك، نسأل الله تعالى العافية والسلامة.

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وأزواجه وذريته والتابعين لهم بإحسان وسلم تسليماً كثيراً.

قال مصنفها التقي السبكي: صنفتها في ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة والحمد لله رب العالمين.